المطلب الخامس

طلب الخروج من النـــار

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الخامس

طلب الخروج من النار

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال: **«يا جبريل مالي اراك متغير اللون؟»**، فقال: ما جئتك حتى أمر الله عزَّ وجلَّ بمنافخ النار، فقال رسول الله ﷺ: **«يا جبريل صف لي النار وانعت لي جهنم»**، فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يُطفأ لهيبها، والذي بعثك بالحق لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من في الأرض كلهم جميعًا من حره، والذي بعثك بالحق لو أن خازنًا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من في الأرض كلهم جميعًا من قبح وجهه ونتن ريحه، والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لانفضَّت وما تقارت حتى تنتهي إلى الأرض السفلى، فقال رسول الله ﷺ: **«حسبي يا جبريل لا ينصدع قلبي فأموت»**، قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال: **«تبكي يا جبريل وانت من الله بالمكان الذي انت به!»**، فقال: وما لي لا أبكي أنا أحق بالبكاء لعلِّي أكون في علم الله على غير الحال التي أنا عليها وما أدري لعلي ابتلى بما ابتلي به إبليس فقد كان من الملائكة، ولعلِّي ابتلى بما ابتلي به هاروت وماروت؟! قال: فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبريل عليه السلام فما زالا يبكيان حتى نوديا: أن يا جبريل ويا محمد: إن الله عزَّ وجلَّ قد

أمنكما أن تعصياه، فارتفع جبريل عليه السلام، وخرج رسول الله ﷺ فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال: «**أتضحكون ورائكم جهنم! فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولما أسغتم الطعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**»[1].

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل: «**ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكًا قط؟**»، قال: «**ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار**»[2].

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مقرحًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهاذمًا للَّذات، وقاطعًا للأمنيات، فهل تفكرت يا بن آدم في يوم مصرعك وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر، فيا جامع المال والمجتهد في البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب. فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك، وقدمت بأوزارك إلى من لا يعذرك.

ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ (سورة القصص:٧٧)، أي: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة، فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في الطين والماء والتجبر والبغي، فكأنهم قالوا: لا تنسَ أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هو الكفن.

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه أحمد.

ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ■★■ رداءان تُلوَى فيهما وحنوط

وقال آخر:

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً ■★■ فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ■★■ هل راح منها بغير القطن والكفن؟

ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ وإلا ففي قوله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٥) ما يكفي السامع له ويشغل الناظر فيه، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ■★■ يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه ■★■ والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الريح له ■★■ والإنس والجن فيما بينها تردُ
أين الملوك التي كانت لعزتها ■★■ من كل أوب إليها وافد يفد؟
حوض هنالك مورود بلا كذب ■★■ لابد من ورده يومًا كما وردوا[1]

(١) «التذكرة» للقرطبي (ص: ٣١-٣٢).

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٣٧).

قال ابن كثير: إن الظالمين لا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من العذاب وشدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها[١].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا بن آدم كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبًا؟ قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيُؤمر به إلى النار»**[٢].

قال سيد قطب: إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات، منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه، ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به، ومنظرهم وهم مخيبوا الطلب غير مقبولي الرجاء، ومنظرهم وهم يدخلون النار، ومنظرهم وهم يحاولون الخروج من النار، ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء فيها، ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك[٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٥٥).
(٢) رواه مسلم والنسائي.
(٣) «في ظلال القرآن» (جـ٢، ص: ٨٨٢).

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٦٤-٦٧).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم:

﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴾ (سورة المزمل: ١١-١٢)، وقال تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (سورة ص: ٣).

﴿ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ ﴾ أي: لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أي: إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم. ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (سورة غافر: ١٢).

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ قيل: مستكبرين حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارًا عليه واحتقارًا له ولأهله، وقيل أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون، فكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء.

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ قيل مستكبرين بالبيت يقولون: نحن أهله سامرًا وكانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه[١].

يقول سيد قطب: ثم رسم مشهد انتباههم على الكارثة الباغتة المفاجئة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾

والمترفون أشد الناس استغراقًا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير وها هم يفاجأون بالعذاب الذي يأخذهم أخذًا فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤر مستغيثين مسترحمين (وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور).

ثم ها هم يتلقون الزجر والتأنيب: ﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ وإذا المشهد حاضر وهم يتلقون الزجر والتأنيب والتيئيس من كل نجدة ومن كل نصير والتذكير بما كان منهم وهم في غمرتهم مستغرقون: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾.

فتتراجعون على أعقابكم كأن ما يتلى عليكم خطر تحاذرونه أو مكروه تجانبونه مستكبرين عن الإذعان للحق ثم تزيدون على هذا سوء القول وهجره في سمركم حيث تتناولون الرسول ﷺ وما جاء به بكلمات السوء.

ولقد كانوا يطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم وهم يتحلقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه وهم يجأرون طالبين الغوث فيذكرهم بسمرهم الفاحش وهجرهم القبيح وكأنما هو واقع اللحظة وهم يشهدونه ويعيشون فيه! وذلك على طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد يوم القيامة كأنها واقع مشهود.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص:٢٥٧).

والمشركـون في تهجـمهم على رسول الله ﷺ وعلى القـرآن في نواديهم وفي سمرهم يمثلون الكبرياء الجاهلة التي لا تدرك قيمة الحق لأنهـا مطموسة البصيرة عمياء فتتخذ منه مادة للسخرية والهـزاء والاتهام، ومثل هؤلاء في كل زمان وليست جاهلية العرب إلا نموذجًا لجاهليات كثيرة خلت في الزمان وما تزال تظهر الآن بعد الآن[١].

﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ وهم يصرخون باستغاثة ويقال لهم حينئذ: ﴿لا تَجْأَرُوا﴾ فإن الجؤار غـير نافع لكم، ﴿مِنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ لا تغاثون ولا تمنعون مـنا أو من جهتنا لا يلحقكم نصر ومغوثة[٢].

وقال القـرطبي في قوله تـعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يضجُّـون ويستـغيـثون وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور.

وقال الجوهري: الجؤار مثل الخوار، يقال جأر الثور يجأر أي: صاح.

﴿لا تُنصَـرُونَ﴾ لا تمنعـون ولا ينفـعكم جـزعـكم أي: إنكم إن تضـرعـتم لم ينفعكم[٣].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص:٢٤٧٣، ٢٤٧٤).
(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص:٣٦).
(٣) «تفسير القرطبي» (جـ١٢، ص:٩١-٩٢).

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١١-١٥).

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ وهي صيغة تكثير كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ (سورة الإسراء: ١٧)، وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (سورة الحج: ٤٥).

﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أي: أُمة أخرى بعدهم.

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ أي: تيقنوا من أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم.

﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي: يفرون هاربين.

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾ هذا تهكم بهم نزرًا أي قيل لهم نزرًا: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة.

قال قتادة: استهزاء بهم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ أي: مازالت تلك المقولة وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصدًا وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا[1].

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ والقصم أشد حركات القطع وجرسها اللفظي يصور معناها ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة فإذا هي مدمرة محطمة . . . ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾، وهو عند القصم يوقع الفعل على القرى ليشمل ما فيها ومن فيها وعند الإنشاء يوقع الفعل على القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى. . . وهذه حقيقة في ذاتها.

فالدمار يحل بالدِّيار والدَّيَّار والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور ولكن عرض هذه الحقيقة في هذه الصورة يضخم عملية القصم والتدمير وهذا هو الظل المراد إلقاؤه بالتعبير على طريقة التصوير.

ثم ينظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى ويأس الله يأخذهم وهم كالفئران في المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود: ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ يسارعون بالخروج من القرية ركضًا وعدوًا وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله كأنما الركض ينجيهم من بأس الله وكأنما هم أسرع عدوًا فلا يلحق بهم حيث يركضون! ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ١٧٩).

عندئذ يتلقون التهكم المرير: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ ! لا تركضوا من قريتكم وعودوا إلى متاعكم الهني وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح... عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه؟! وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب. إنما هو التهكم والاستهزاء! عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من يأس الله المحيط، وأنه لا ينفعهم ركض ولا ينقذهم فرار فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ولكن لقد فات الأوان. فليقولوا ما يشاءون فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ ويا له من حصيد آدمي لا حركة فيه ولا حياة وكان منذ لحظة يموج بالحركة وتضطرب فيه الحياة![1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ٢٣٧١).

قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

(سورة الفرقان: ١١-١٤).

يخبر الله تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم بالحق بلا حجة ولا دليل منهم.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ أي إنما يقول هؤلاء تكذيبًا وعنادًا لا لأنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال.

﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي: أرصدنا.

﴿ لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أي: عذابًا أليمًا حارًا لا يطاق في نار جهنم، وقال سعيد بن جبير: السعير وادٍ من قيح في جهنم.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أي: جهنم.

﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني في مقام الحشر، وقال السدي: من مسيرة مائة عام.

﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي حنقًا عليهم كما قال تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (سورة الملك: ٧-٨). أي: يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن العبد يجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف».

قال مجاهد: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه وترتعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: ربِّ لا أسألك اليوم إلا نفسي.

﴿إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾ قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «مثل الزج في الرمح» أي: من ضيقه.

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي: مكتفين.

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة.

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أول ما يُكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي: يا ثبوراه وينادي: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار فيقول: يا ثبوراه، فيقال لهم، فيقولون: يا ثبورهم لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً»[1].

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً وادعوا ويلاً كثيراً.

وقال الضحاك: الثبور ولهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار[2].

بل كذبوا بالساعة، وبلغوا هذا المدى من الكفر والضلال، هذا المدى الذي يصوره التعبير بعيداً متطاولاً يضرب عن كل ما قبله ليبرزه ويجسمه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ ثم يكشف عن الهول الذي ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة: إنها السعير حاضرة مهيأة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

---

(١)، (٢) انظر «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٣٢١).

والتشخيص ـ ونعني به خلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية ـ فن في القرآن يرتفع بالصور وبالمشاهد التي يعرضها إلى حد الإعجاز بما يبث فيها من عنصر الحياة.

ونحن هنا أمام مشهد السعير المتسعرة وقد دبت فيها الحياة! فإذ هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة. تراهم من بعيد! فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها وهي تتحرق عليهم وتصعد الزفرات غيظًا منهم وهي تتميز من النقمة وهم إليها في الطريق؟! مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب!.

ثم ها هم أولاء قد وصلوا. فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء. يصارعونها فتصرعهم ويتحامونها فتغلبهم بل ألقوا إليها إلقاء، ألقوا مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل، ألقوا في مكان منها ضيق يزيدهم كربة وضيق ويعجزهم عن التفلت والتململ... ثم ها هم أولاء يائسون من الخلاص مكروبون في السعير، فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ... فالهلاك اليوم أمنية المتمني والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يطاق... ثم ها هم يسمعون جواب الدعاء. يسمعون تهكمًا ساخرًا مريرًا: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، فهلاك واحد لا يجدي شيئًا ولا يكفي شيئًا![1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٥٥٤، ٢٥٥٥).

قال الزمخشري: ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضيق والإرهاق حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصًا كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع. وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد، والثبور الهلاك ودعاؤه أن يقول: واثبوراه: أي تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك.

﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم[1].

(١) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص: ٨٤).

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (سورة الفرقان: ٢٧-٢٩).

يخبر الله تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق رسول الله ﷺ وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفًا وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ (سورة الأحزاب: ٦٦).

فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلاً: ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما.

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ وهو القرآن.

﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أي: بعد بلوغه إياي.

﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ أي: يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٣٢٧).

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها إنما هو يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيمًا.

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ فسلكت طريقه لم أفارقه ولم أضل عنه الرسول الذي كان ينكر رسالته ويستبعد أن يبعثه الله رسولاً!

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴾ فلانًا بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله.

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ لقد كان شيطانًا يضل أو كان عونًا للشيطان ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ يقوده إلى مواقف الخذلان ويخذله عند الجد، وفي مواقف الهول والكرب.

وهكذا راح القرآن يهز قلوبهم هزًا بهذه المشاهد المزلزلة التي تجسم لهم مصيرهم المخيف وتريهم إياه واقعًا مشهودًا، وهم بعد في هذه الأرض يكذبون بلقاء الله ويتطاولون على مقامه دون توقير ويقترحون الاقتراحات المستهترة، والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان[1].

---

(١) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٥٦٠، ٢٥٦١).

قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (سورة ص: ٣).

يخوِّف الله عزَّ وجلَّ المخالفين والمعاندين بما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذبة.

﴿فَنَادَوْا﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئًا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٢)، أي يهربون: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٣)، ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس بحين تروٍّ ولا فرار، ليس بحين مغاث، ونادوا النداء حين لا ينفعهم».

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة[1].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فلعلهم حين يتملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم وأن يرجعوا عن شقاقهم وأن يتمثلوا أنفسهم في

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٢٦).

موقف أولئك القرون ينادون ويستغيثون وفي الوقت أمامهم فسحة قبل أن ينادوا ويستغيثوا ولات حين مناص ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص![1].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وعيد لذوي العزة والشقاق.

﴿فَنَادَوْاْ﴾ فدعوا واستغاثوا، وقال الحسن: فنادوا بالتوبة.

﴿وَلَاتَ﴾ هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث وبذلك تغير حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان.

﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ ولا حين مناص لهم.

﴿مَنَاصٍ﴾ والمناص: المنجا والفوت[2].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٣٠٠٧).

(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص:٣٥٩).

قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (سورة غافر: ١١-١٢).

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٨)، والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ في عرصات القيامة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة: ١٢). فإذا دخلوا النار وذاقوا مسَّها وحسيسها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم.

وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعدما كنا أمواتًا ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا إلى أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجُّه وتنفيه ولهذا قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: أنتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٨).

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو[١].

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وهي كلمة الذليل اليائس البائس... ﴿رَبَّنَا﴾ وقد كانوا يكفرون وينكرون. احييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فإذا هو حياة وإذا نحن أحياء ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا فجئنا إليك وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه، وقد اعترفنا بذنوبنا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ بهذا التنكير الموحي باللهفة واليأس المرير.

هنا في ظل هذا الموقف البائس ـ يجيبهم بسبب هذا المصير: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ فهذا هو الذي يقودكم إلى ذلك الموقف الذليل إيمانكم بالشركاء وكفركم بالوحدانية. فالحكم لله العلي الكبير: وهما صفتان تناسبان موقف الحكم. الاستعلاء على كل شيء، والكبر فوق كل شيء في موقف الفصل الأخير[٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٧٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٧٢).

قال تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (سورة غافر: ٣٢-٣٣).

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يعني يوم القيامة وسمي بذلك قال بعضهم لما جاء في حديث الصور أن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتجت فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضًا، وقال آخرون: ينادى كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار.

وقيل سمي بذلك لمناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ (سورة الأعراف: ٤٤).

ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٠).

ولمناداة أهل الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف.

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي: ذاهبين هاربين ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ (سورة القيامة: ١١-١٢)، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي: ما لكم من مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره[1].

يقول سيد قطب: . . . ثم يطرق الله قلوب الظالمين طرقة أخرى وهو يذكرهم بيوم آخر من أيام الله يوم القيامة يوم التناد: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ٧٩).

﴿تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ تُلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك وتصور يوم زحام وخصام، وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم أو محاولتهم الفرار ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار، وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان!

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ . . . تلميحًا بأن الهدى هدى الله وأن من أضله الله فلا هادي له. والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٨٠).

قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (سورة الحج: ١٩-٢٢).

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ روى البخاري أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، وهم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»[1].

فالذين آمنوا يريدون نصرة دين الله عزَّ وجلَّ والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وإظهار الباطل.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من النار.

قال سعيد بن جبير: ثياب من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي: إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة.

وقال سعيد بن جبير: هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء، وقيل: تذوب جلودهم وتتساقط.

قال رسول الله ﷺ: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان»[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

قال عبد الله بن السري: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته فإذا أدناه من وجهه تكرهه قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه.

فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾، ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لو أن مقمعًا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان، ولو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[(٢)]، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

قال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة السجدة: ٢٠)، ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً[(٣)].

قال سيد قطب: هذه ثياب من النار تقطع وتفصل! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس يصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس، وهذه سياط من حديد أحمته النار، وهذا هو العذاب يشتد ويتجاوز الطاقة، فيهب الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا ﴿غَمٍّ﴾ وها هم يردون بعنف ويسمعون التأنيب: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف[(٤)].

---

(١)، (٢) رواهما أحمد.

(٣) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص:٢١٨-٢١٩).

(٤) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص:٢٤١٥).

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة السجدة: ٢٠-٢١).

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي: خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾.

قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة وإن الأرجل لمقيدة وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ويقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه.

وقال البراء بن عازب: بل هو عذاب القبر.

وقال أبي بن كعب: هو المضمار والدخان والبطشة واللزام[1].

يقول سيد قطب: وما يستوي المؤمنون والفاسقون في طبيعة ولا شعور ولا سلوك حتى يستووا في الجزاء في الدنيا وفي الآخرة سواء. والمؤمنون مستقيموا الفطرة متجهون إلى الله عاملون على منهاجه القويم، والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون في الأرض لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق على نهج الله للحياة وقانونه

(١) «تفسيرابن كثير» (جـ٣، ص:٤٧٨).

الأصيل، فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين في الآخرة وأن يلقى كل منهما الجزاء الذي يناسب رصيده وما قدمت يداه ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ التي تؤويهم وتضمهم ﴿نُزُلاً﴾، ينزلون فيه جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة: ١٩).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يصيرون إليها ويأوون، ويا سوءها من مأوى خير منه التشريد!

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ وهو مشهد فيه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فهو التقريع زيادة على الدفع والتعذيب.

ذلك مصير الفاسقين في الآخرة وليسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد، فالله يتوعدهم بالعذاب في هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

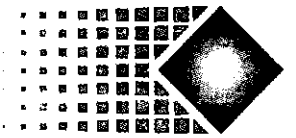

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٢٨١٣).